Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

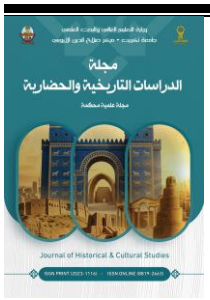

IRAQI Academic Scientific Journals
العراقية المجلات الأكاديمية العلمية

Journal of historical & cultural studies
Print - ISSN: 20231116 & Online - ISSN: 88192663

Journal Homepage:
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/396

J H C S
مجلة الدراسات التاريخية والحضارية

The image of Iraqi women in the writings of foreign travelers in the XIX century

*** NAME Researcher(1):Prof. Dr. Husham Suwadi Hashim**
College of Electronics Engineering / University of Ninevah
NAME Researcher(2):Asst. Lect. Ahmed Abdul Jabbar
University of Mosul / College of Tourism Sciences
Second Researcher:

terature, Social History, Iraqi Women, Orientalism, Nineteenth Century.

Article Information:

Received: 14/5/2026
Received in revised form:1/6/2026
Accepted:8/6/2026
Final Proofreading:20/5/2026
Published : 18/06/2026

Information of the corresponding researcher:

©THIS IS AN OPEN ACCESS ARTICLE UNDER THE CC BY /LICENSE. http://creativecommons.org/licenses/by/4.0

Abstract:

This research deals with the image of Iraqi women in the literature of European travels during the nineteenth century (1800-1900), as a problematic historical source for the study of social history. The problem of the research lies in the conflict between the documentary value of these blogs and the Orientalist prejudices that have formulated a stereotype of Iraqi women. The research aims to critically analyze these images and deconstruct the Orientalist discourse that produced them, by tracking women's representations in the private and public spaces (home, work, clothing, marriage, and education), while comparing urban, rural, and nomadic .environments

The research was based on the historical-analytical approach, using the tools of external and internal criticism of a selection of European travel books (from men and women), comparing their narratives with local historical studies based on primary documents. The research concluded that travel literature does not directly reflect the Iraqi social reality, but is a textual construction influenced by the background of the traveler, his gender and motives, and that Iraqi women were real economic and social actors, transcending the stereotypical roles confined to them by Western fiction

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

صورة المرأة العراقية في كتابات الرحالة الأجانب في القرن التاسع عشر

الباحث(1): أ. د. هشام سوادي هاشم
كلية هندسة الالكترونيات/ جامعة نينوى
husham.hashim@uoninevah.edu.iq
الباحث(2): م. م. احمد عبد الجبار جاسم
جامعة الموصل/ كلية العلوم السياحية
ahmed.abduljabar@uomosul.edu.iq

الكلمات المفتاحية

- المراة العراقية
- التاريخ الاجتماعي
- ادب الرحالة
- الاستشراق
- القرن التاسع

معلومات البحث

تاريخ استلام البحث:2026/5/14
تاريخ استلام النسخة النهائية:2026/6/1
تاريخ قبول النشر:2026/6/8
تاريخ اجراء التدقيق اللغوي:2026/5/20
تاريخ النشر على موقع المجلة: 2026/06/18

معلومات الباحث المراسل:

©THIS IS AN OPEN ACCESS ARTICLE UNDER THE CC BY /LICENSE. http://creativecommons.org/licenses/by/4.0

الملخص

يتناول هذا البحث صورة المرأة العراقية في أدب الرحلات الأوروبي خلال القرن التاسع عشر (1800–1900م)، بوصفه مصدراً تاريخياً إشكالياً لدراسة التاريخ الاجتماعي. تكمن إشكالية البحث في التنازع بين القيمة التوثيقية لهذه المدونات وبين التحيزات الاستشراقية التي صاغت صورة نمطية للمرأة العراقية. يهدف البحث إلى تحليل هذه الصور نقدياً، وتفكيك الخطاب الاستشراقي الذي أنتجها، عبر تتبع تمثيلات المرأة في الفضاءين الخاص والعام (المنزل، العمل، الملبس، الزواج، والتعليم)، مع المقارنة بين البيئات الحضرية والريفية والبدوية.

اعتمد البحث على المنهج التاريخي التحليلي، باستخدام أدوات النقد الخارجي والداخلي لمجموعة مختارة من كتب الرحلات الأوروبية (من رجال ونساء)، ومقارنة رواياتهم بالدراسات التاريخية المحلية المستندة إلى وثائق أولية. خلص البحث إلى أن أدب الرحلات لا يعكس الواقع الاجتماعي العراقي بشكل مباشر، بل هو بناء نصي يتأثر بخلفية الرحالة وجنسه ودوافعه، وأن المرأة العراقية كانت فاعلاً اقتصادياً واجتماعياً حقيقياً، تجاوزت الأدوار النمطية التي حصرها فيها الخيال الغربي.

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

المقدمة

يعد أدب الرحلات من أهم المصادر التاريخية لدراسة التاريخ الاجتماعي لأي مجتمع كان، لاسيما في مناطق تعاني من ندرة المصادر المحلية عن تفاصيل الحياة اليومية، ويأتي العراق في مقدمة هذه المناطق، فخلال القرن التاسع عشر(1800–1900م)، شهد العراق توافدا العديد من الرحالة والمستكشفين والدبلوماسيين والمنقبين الأوروبيين الذين دونوا ملاحظات غنية عن أحوال المجتمع العراقي، لكنها غالبا ما تأثرت بنظرة استشراقية متحيزة. لم يكن هؤلاء الرحالة مجرد مراقبين محايدين، بل كانوا فاعلين أسهموا في تشكيل صورة العراق ومجتمعه لدى القارئ الأوروبي، اذ تحولت مذكراتهم ورسائلهم وكتبهم إلى مصادر أساسية ساهمت في فهم الحياة الاجتماعية، لاسيما في ظل ندرة التدوين المحلي وغيبة الأصوات النسوية عن السجل المكتوب.

وفي هذا السياق احتلت المرأة العراقية مكانة بارزة في تلك المدونات، سواء من خلال وصف ملابسها أو أدوارها الأسرية والاقتصادية، إلا أن هذه الصور لم تكن دقيقة دائما، بل عكست الخلفية الثقافية والذهنية للرحالة رجلا ام نساء كانوا. فمثلا، وصف الراحل البريطاني أوستن هنري لايارد (1817–1894م) – عالم آثار ودبلوماسي بريطاني يعد من مؤسسي علم الآثار الحديث في العراق لاكتشافاته التاريخية في نينوى والنمرود.(Layard, 1903, pp. 9–36) – في كتابه "نينوى وبقاياها" وضع النساء اليزيديات، مشيراً إلى الاضطهاد والمذابح والاختطاف والاستعباد الذي تعرضن له من قبل باشوات بغداد والموصل (Layard, 1849, Vol.2, pp. 338–339). وهو توصيف برز عنف السلطة الذكورية والسياسية لكنه تجاهل الأبعاد الأوسع للعلاقات القبلية والمذهبية والسياقات التاريخية التي شكلت هذه الظواهر، ما كشف عن تحيز استشراقي يرى في السلطة والأسرة العراقية نظاما قمعيا مطلقا دون الغوص في تعقيداته ما كشف عن واقع اجتماعي قاس ويعزز القيمة العلمية للدراسة.

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

تنطلق إشكالية هذا البحث من محاولة الإجابة عن التساؤل الاتي: إلى أي مدى تعبر صور المرأة العراقية في كتابات الرحالة الأجانب عن الواقع الاجتماعي الحقيقي، وإلى أي مدى تعكس تصورات ذهنية مسبقة؟ وهل اختلفت هذه الصور بين البيئات الحضرية والريفية والبدوية؟ تكتسب الدراسة أهميتها من كونها تتعامل مع أدب الرحلات بوصفه "مصدرا إشكاليا"، لا يقرأ قراءة وصفية بل تحليلية نقدية، تساعد على إعادة بناء السياق الاجتماعي الذي عاشت فيه المرأة العراقية آنذاك، وتفكيك النصوص للوصول الى واقع المرأة بعيدا عن الصور النمطية التي فرضها الخيال الغربي.

اعتمد هذا البحث على المنهج التاريخي التحليلي، مع استخدام أدوات النقد الخارجي والداخلي للمدونات وكتب الرحالة لفحص مصداقية كتاباتهم، كما يجمع بين التحليل الكيفي للنصوص وبين بعض الأدوات الكمية البسيطة كتصنيف الموضوعات وتكرار الإشارات إلى أدوار النساء في مدونات الرحالة لضمان الدقة، وسيتم مقارنتها من خلال المراجع الثانوية الرصينة التي اعتمدت على وثائق أولية (مثل سجلات المحاكم الشرعية العثمانية المتوفرة في الدراسات التاريخية الحديثة.

الأوضاع العامة في العراق خلال القرن التاسع عشر:

شهد العراق خلال القرن التاسع عشر تحولات سياسية واجتماعية مهمة، أثرت بشكل مباشر في بيئته الاجتماعية، فخلال تلك المدة كان العراق خاضعا للسيطرة العثمانية ومقسم إداريا الى ثلاث ولايات رئيسية هي بغداد والبصرة والموصل، وقد جعل هذا التقسيم لكل منها خصوصيته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وقد انعكس ذلك على أنماط الحياة اليومية، خاصة ما يتعلق بحياة الأسرة والمجتمع (الأنصاري، 1970، ص 6–7). وتأثرت الحياة الاجتماعية في العراق بعدة عوامل، من بينها الحروب الداخلية والنزاعات المسلحة –التي كانت شبه مستمرة– بين القبائل والعشائر او مع القوى المسيطرة على البلاد المتمثلة بالعثمانيين، وقد انعكست على ذلك على وضع المرأة بشكل مباشر خاصة في المناطق الريفية والقبلية، اذ اضطرت المرأة إلى المشاركة في إدارة الأسرة والممتلكات في أوقات الأزمات، فكان عليها

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

رعي الماشية وحلبها وجلب الحبوب وغيرها من الأمور الضرورية التي تحتاجها الاسـرة (Topuridze, 2023, p. 198).

اتسمت المدن الرئيسية بوصفها مراكز (إدارية وتجارية) بوجود طبقات اجتماعيـة متنوعـة، شـملت الموظفين الحكوميين، رجال الدين، التجار، وارباب الحرف والمهن، وقد افرز ذلك وجود علاقات اجتماعية عالية التنظيم خضعت للمكانة والنوع الاجتماعي والانتماء المهني بما عكس طبيعة المجتمع الحضري، وقد أدى ذلك إلى حضور ذكوري في المجال العام –الأسواق، الدواوين، المؤسسات الإدارية والدينية– وادى في الوقت نفسه الى محدودية ظهور النساء في الأماكن العامة، غير ان هذا لا يعني غيابا اجتماعيا بقدر ما هو نتاج لبيئة ثقافية وقانونية نظمت على أساس النوع، اذ اضطلعن بأدوار محورية داخل المجـال الاسـري شملت إدارة شؤون منازلهن والمشاركة في اتخاذ القرارات الاقتصادية، فضلا عن دورهم في الحفاظ على الروابط الأسرية(Al-Nasiri Abedalrazak, 2019, pp. 3-4). أما المناطق الريفية والقبليـة فكانـت الحياة فيها أكثر تقليدية، فضعف سيطرة الدولة هناك واعتماد سكانها على الزراعة والرعي مع وجود نمط اجتماعي قائم على التقاليد القبلية والعشائرية، فرض أنماطا من العمل تتطلب مشاركة النساء والظهور الى العلن بشكل أكبر، اذ شاركن في الزراعة والرعي والصناعات المنزلية، ولكن ذلك الظهور لم يعن التحرر الكامل، بل كان محكوما بقيم وعادات قبلية صارمة (Topuridze, 2023, p. 198).

كان للتنوع القومي والديني والمذهبي الأثر الواضح على تشكيل أوضاع النساء وادوارهن الاجتماعية، اذ عاش العرب والاكراد والتركمان مسلمون سنة وشيعة إلى جانب اليهود والنصارى ضمن فضاء حضري واحد، تحكمه منظومة معقدة من القواعد الدينية والأعراف المحليـة(النجار، 2010، ص 21-22)، وقـد انعكس ذلك في تباين أنماط الزواج ومستويات التعليم والممارسات الاجتماعية اليومية، وقد حددت التقاليـد الإسلامية حدود الدور العام للمرأة في المجتمع وتنظيمها وضبط حضورها في الفضاءات المختلطة، انه لم يمنعها من الانخراط في الأعمال التجارية الصغيرة أو الإشراف على الحرف اليدوية وإدارة المنزل بشكل

فعال(Al-Nasiri Abedalrazak, 2019, pp. 3-4). وكشف لنا هذا الواقع ان موقع المرأة ودورها في المجتمع لم يكن نتاجا مباشرا للنصوص الدينية بقدر ما هو انعكاس لتفاعل الدين مع الأعراف والتقاليد المحلية. ومن جهة أخرى شكل العمران والاقتصاد في المدن الكبرى بيئة تعليمية وثقافية ذات طابع طبقي انعكس بصورة مباشرة على أنماط المعرفة المتاحة للنساء آنذاك، فقبل ظهور المدارس الرسمية في العراق أتاح الوضع الاقتصادي والواجهة الاجتماعية للأسر الثرية وصول بناتهم إلى مستويات من التعليم عن طريق الكتاتيب المنزلية، فتعلمن القراءة والكتابة وقراءة القران الكريم(النجار، 2010، ص 162-163)، وفي المقابل انحصر التعليم للنساء في الطبقات الدنيا على المعرفة العملية والثقافة الشفوية، والمتمثلة في حفظ القصص الشعبية والأمثال والتقاليد الطبية والعلاجية (Koush, 2025, pp. 203-205, 208).

وتوضح تلك الخلفية أن المرأة العراقية خلال المدة المدروسة لا يمكن فهمها بمعزل عن السياق السياسي والاقتصادي والاجتماعي العام، فالأطر التي حددت أدوارها لم تكن دينية فقط، كما افترض كثير من الرحالة، بل كانت نتاج تفاعل معقد بين الدولة والاقتصاد والبنية المحلية والعائلية، وهذا الفهم ضروري قبل الانتقال إلى تحليل صورة المرأة في كتابات الرحالة أنفسهم. هذا السياق يمهد لفهم كيفية صوغ الرحالة لصورة المرأة، متأثرين بنظرتهم وتحيزاتهم الأوروبية.

خلفيات الرحالة الأجانب ودوافع رحلاتهم إلى العراق وأثرها في تمثيل المرأة:

رغم تنوع خلفيات الرحالة الذين زاروا العراق وتعدد دوافعهم وأساليب كتاباتهم وملاحظاتهم، إلا مدوناتهم قدمت ثروة غنية من المعلومات حول التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي للعراقيين، لما احتوته من ملاحظات مباشرة عن أنماط العيش والعلاقات الاجتماعية والبنى الاقتصادية، فمنهم من كان دبلوماسيا أو منقبا عن الآثار أو مبشرا أو مغامرا ولكل فئة منهم تصوراتها المسبقة وأهدافها الخاصة، والتي انعكست بوضوح على كتاباتهم في تصوير المجتمع العراقي لاسيما فيما يتعلق بالنساء واوضاعهم.

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

ولفهم صورة المرأة في هذه المصادر فهما تاريخيا دقيقا لابد من تحليل موقع الراحله داخل بنية السلطة والمعرفة الأوروبية، فغالبا ما كانت دوافعهم شملت الاستكشاف العلمي والبحث الأثري والدراسة الجغرافية والرغبة في التوثيق الثقافي والاجتماعي، الى جانب الفضول الغربي تجاه الغرباء والبحث عن انماط حضارية مختلفة عن أوروبا وقد أسهم كله في انتاج صورة متباينة للمرأة العراقية، راوحت بين الرومانسية أو المبالغة في الوصم الاجتماعي أو الاقتصادي، وهو ما يتطلب دراسة نقدية دقيقة لمدوناتهم لفهم الحقيقة التاريخية(Said, 2003, p. 3; Kazak, 2025, p. 195).

اصيف الى ذلك كله ما حمله الرحالة انفسهم من خلفيات اجتماعية وثقافية مختلفة، لاسيما ان الغالبية العظمى منهم كانوا من الرجال، وهو ما شكل عامل حاسم في تشكيل الصورة المقدمة عن النساء، فقد حرموا من دخول الفضاءات النسوية الخاصة مثل المجالس المنزلية والحمامات، ما جعل معرفتهم بالنساء معرفة غير مباشرة اعتمد على السماع أو التخمين وهو قيد بنيوي حول المرأة في كثير من الأحيان إلى موضوع تخيلي، يكتب عنه أكثر مما يرصد فعليا، ونتيجة لذلك ركز هؤلاء في كتاباته على البنى العامة والاحداث الكبيرة(Kamberidou, 2013, p. 3)، فيما جاءت إشاراتهم عن النساء بشكل عرضي ومشروطة بمواقع ظهورهن في الأماكن التي استطاعوا الوصول اليها، فعلى سبيل المثال كتب الرحالة التجار، بشكل أوضح عن الحياة الاقتصادية، اذ اتاحت لهم تنقلاتهم بين الأسواق والموانئ، لاسيما البصرة، ملاحظة مشاركة النساء في بعض الأنشطة التجارية والصناعات المنزلية، وإن لم يمنحوا لهذه الملاحظات أهمية تحليلية كبيرة، فالمرأة العاملة غالبا ما كانت تذكر بوصفها ظاهرة استثنائية او "غريبة"، لا جزءا طبيعيا من النظام الاقتصادي المحلي(التميمي وآخرون، 1986، ص 371، 479).

كما كتب جيمس سلك بكنغهام (1786–1855م) – مستكشف ومؤرخ بريطاني، اشتهر برحلته التاريخية إلى العراق عام 1816م ودراساته الميدانية المبكرة لأنقاض بابل ونينوى (Buckingham, 1855, pp. 1–27). وكلوديوس جيمز ريج (1787–1821م) – مستشرق ومقيم بريطاني في بغداد،

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

اشتهر بدراساته الميدانية للأماكن الأثرية في العراق وكردستان خلال عمله مندوباً لشركة الهند الشرقية. – (عزاوي، 2013، ص 28–32) عن بغداد، وقدما وصفا أكثر تفصيلا للحياة الاجتماعية، فريج، بحكم عمله كمقيم بريطاني في العراق، كان لديه احتكاك أوسع بالنخب المحلية، وأشار أحيانا إلى تـأثير النسـاء فـي القرارات العائلية، خاصة داخل البيوت الثرية لكن حتى هنا بقيت المرأة "مرئية" فقط من خـلال علاقتهـا بالرجل لا كفاعل اجتماعي مستقل، وفي كتابه "رواية إقامة في كردستان وموقع نينوى القديمة" يصف الحياة الأسرية للطبقات العليا والتي زارها عام 1820م، اذ ظهر النساء ليس بـأفراد مسـتقلين بـل بوصـفهن الزوجات أو قريبـات لرجـال ذوي نفـوذ، ممـا عكـس تركيـزه علـى البنيـة الذكوريـة للسـلطة الاجتماعية(السامرائي، 2024، ص 282–285). أما الراحلات الأوروبيات اللواتي زرن العـراق فـي أواخر القرن التاسع عشر فقد استطعن ان يقدمن منظوراً مختلفا نسبيا، اذ استطعن دخول الفضاءات النسوية المغلقة أمام الرجال مثل المجالس المنزلية والحمامات الا ان كتاباتهن لم تخلُ من النزعة الاستشراقية، فقد استطاعت كتابتهن ان تكشف لنا عن وجود شبكات للتضامن ما بين النساء وعن أنمـاط الحيـاة اليوميـة والمشاعر الإنسانية التي تجاهلوها الرحالة الرجال، وهذه النصوص رغم ندرتها ظهرت كيـف أن جـنس الكاتب نفسه كان عاملا حاسما في تشكيل صورة المرأة(Kamberidou, 2013, p. 3)، ومن ذلك وصف ليدي آن بلنت (1837–1917م) – مستكشفة بريطانية أتقنت العربية، وتُعد أول امرأة توثق بدقـة حيـاة القبائل العربية خلال رحلتها من سوريا والعراق إلى قلب الجزيرة العربية–(Blunt, 1879, pp. 1–25) والتي زارت العراق عام 1878م، البدويات في رحلتها إلى العراق والمناطق البدويـة، ايهـم "الحجـاب الصارم كعرف اجتماعي البدو ليس كذلك...، ويخرجن لجمع الحطب والتحدث بحرية مع الغرباء...، ليسوا كأنساء المدن فهن لا يتظاهرن بالخجل او الحياء المبالغ فيه...، يمكن لهن زيارة بعضهن بعضا في الخيام" وهنالك إشارات أخرى(Blunt, Vol.1 1881, pp. 48, 73, 134, 152)، وهو وصف يبين الفرق بين البيئات القبلية والحضرية وعزز من فهم الأدوار المتغيرة للمرأة وفق السياق المحلي، ويوضح تحليل هـذه

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

النماذج أن المرأة العراقية في أدب الرحلات لم تكن شخصية حقيقية بقدر ما كانت بنـــاء نصـــيا متغيـــرا، يتشكل وفق موقع الراحل وهدفه وسياقه الثقافي. هذا التحليل مهد لفهم كيفية تأثر الخلفية الثقافيـــة للرحالـــة على صورة المرأة، معتمدين على رؤية أوروبية غالبا ما تبسط الحقيقة.

على الرغم من ذلك فان تلك المدونات استطاعت ان تقدم مادة أساسية لا غنى عنهـــا لدراســـة المـــرأة العراقية، كونها شملت ملاحظات مباشرة على الحياة اليومية والعادات الاجتماعية والدور الاقتصادي للمرأة وأحيانا التفاعل بين الجنسين داخل الأسرة والمجتمع، مما جعلها مصدرا لا يستغنى عنه للدراسات التاريخية الاجتماعية، فبناءً على ذلك لم تكن صورة المرأة العراقية في أدب الرحلات نتاج الواقع وحده، بـــل نتـــاج التفاعل بين هذا الواقع ونظرة الراحل وموقعه الاجتماعي وأهدافه السياسية أو الفكرية، فالرحالة لم يكتبـــوا عن النساء كما هن، بل استلهمت خيالاتهم المأخوذة من قصص "ألف ليلة وليلة" تلك الصورة، كما صوروا نساء الشرق بما سمحت لهم مواقعهم أن يروهن، او كما أراد جمهورهم الأوروبي أن يقرأ عنهن(النجـــدي، 2008، ص 120).

الحياة المنزلية والفضاءات الخاصة كما ظهرت في أدب الرحلات:

شكل الفضاء المنزلي محورا أساسيا في تصور الرحالة الأجانب لحياة المرأة العراقيـــة، إذ اعتبـــروا البيت المجال الطبيعي والحصري لوجودها وأكثر الأماكن التي يمكن من خلالهـــا فهـــم أهميـــة دورهـــا الاجتماعي. غير أن هذا التركيز لم يكن نابعا من معرفة مباشرة بالبيئة الداخلية للحياة الاسرية، بقدر ما كان نتاج لافتراضات ثقافية أوروبية كانت ترى في الفصل بين المجالين العام والخاص مقياسا لتحرر المرأة أو تقييدها. فغالبا ما وصف الرحالة البيوت العراقية بوصفها فضاءات مغلقة تحكمها سلطة الرجل وعاشت فيها النساء في عزلة شبه تامة عن المجتمع (Rubio-Marí n, 2014, pp. 12-13).

إلا أن هذا الوصف تجاهل البنية الداخلية للأسرة الممتدة في المجتمع العراقي، اذ لم يكن مجالا سلبيا او هامشيا بل كان ساحة مارست فيها النساء لاسيما الأمهات وكبيرات السن اشكالا فعلية مـــن الســـلطة إدارة

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

شؤون المنزل، وتنظيم الاقتصاد المنزلي وتوزيع العمل، وضبط العلاقات بين أفراد الأسرة وهي أدوار جوهرية قلما أولاها الرحالة أهمية تحليلية، الا ان بلنت اظهرت ذلك بقولها: "رغم تظاهرهن أحياناً بالجلوس وعدم القيام بعمل...، إلا أنهن كن في الحقيقة يدبرن أموراً معقدة تتعلق بالمصاهرات والتحالفات"(Blunt, 1881, Vol.1, pp. 256, 262).

لم تكن الأمومة، كما صورها الرحالة، مجرد وظيفة بيولوجية، بل كانت موقعا اجتماعيا منح المرأة سلطة رمزية وأخلاقية داخل الأسرة. فقد لاحظ بعض الرحالة احترام الأبناء لأمهاتهم، وتأثيرهن في توجيه السلوك وغرس القيم، إلا أن هذه الملاحظات ظلت عابرة. واكدت الدراسات الاجتماعية أن الأم كانت الوسيط الأساسي في نقل الثقافة الدينية والعادات الاجتماعية وهو دور تأسيسي في إعادة إنتاج المجتمع (Younus et al., 2020, pp. 305–306).

كما تجاهلوا كثير من كتابات الرحالة الذكور الفضاءات النسوية داخل المجال الخاص، مثل المجالس المنزلية والزيارات المتبادلة والحمامات العامة، وهي فضاءات أدت أدوارا مركزيا في التواصل الاجتماعي وتبادل الخبرات وبناء علاقات اجتماعية جديدة. وقد بقيت هذه الفضاءات غير مرئية للرحالة الذكور بحكم القيود الاجتماعية والثقافية، فغابت عن نصوصهم أو ذكرت بوصفها تفاصيل ثانوية لا تستحق الكتابة او التحليل، وفي المقابل أسهمت كتابات بعض الرحالات الاوربيات في استكمال الصورة الغامضة والمجهولة التي فقدت في مؤلفات الرحالة الذكور، فقد أتاح لهن جنسهم الدخول الى الفضاءات النسوية المغلقة امام الرجال(Sawyer, 2012, p. 82)، وبرزت في هذا السياق الراحلة الفرنسية جان ديولافوي (1851–1916م) – مستكشفة فرنسية أتقنت لغات عدة، اشتهرت بتوثيقها الرائد لبلاد الرافدين وفارس بمنتصف القرن التاسع عشر في كتابها (La Perse, la Chaldée et la Susiane). (Dieulafoy, 1887, – pp. 1–30) التي زارت العراق عام 1880م وذكرت كيف كانت النساء يستخدمن فترات تواجدهن في هذه الفضاءات (مثل الحمامات الأسبوعية) ليس فقط للتجمل، بل لتبادل المعلومات، اذ ذكرت أن الذهاب إلى

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

الحمام مرة في الأسبوع كان كافياً لتمشيط الشعر والعناية بالنفس وهو ما مثل طقساً اجتماعياً دورياً. كما كانت هذه الجلسات النسائية مكاناً لتبادل الفضول حول العالم الخارجي، وهو وصف يكمل الصورة المغلقة التي قدمها الرحالة الذكور (Dieulafoy, 1887, p. 654).

وفي البيئات البدوية استطاعت بلنت ان تقدم صورة مغايرة لما وصفه الرحالة الرجال، إذ وصفت حفلات الزواج لدى قبائل شمر وعنزة بوصفها مناسبات تبرز إرادة المرأة وحضورها، سواء من خلال المشاركة في حفلات الزواج التي تسودها أجواء البهجة ويبرز الحضور الاجتماعي للمرأة، اذ شاركت في الرقص والغناء الشعبي دون القيود الصارمة التي كانت سائدة في المدن، وهو ما عكس اختلاف أنماط التعبير النسوي تبعا للسياق الاجتماعي (Blunt, 1881 Vol.1, p. 142).

ويتضح من ذلك أن الحياة المنزلية، كما وردت في أدب الرحلات، كانت ناقصة وغير دقيقة، اذ اعتمدت على نظرة سطحية اكتفت بوصف المشهد من الخارج دون فهم الحقيقة، فالبيت لم يكن سجنا للمرأة، بل كان مجالا لممارسة النفوذ الاجتماعية، وبناء المكانة، وإعادة إنتاج القيم والعلاقات، وإعادة قراءة هذا الفضاء تسمح بإعادة الاعتبار لدور المرأة العراقية بوصفها فاعلا مركزيا داخل الأسرة، لا مجرد كائن معزول خلف الجدران.

الملبس والحجاب:

أولى الرحالة الأجانب اهتماما واضحا بملابس النساء العراقيات فتوقفوا عند تفاصيل الأقمشة والألوان والحلي والزينة لا سيما في المدن الكبرى، اذ ربطوا في الغالب بين فخامة اللباس والمكانة الاجتماعية، وهو ربط صحيح جزئيا، لكنه جاهل البعد الرمزي للملبس بوصفه لغة اجتماعية عبرت عن العمر والحالة الزوجية والانتماء المناطقي والمناسبة الاجتماعية. فاللباس لم يكن مجرد ستر للجسد بل وسيلة للتواصل داخل المجتمع، وهو بعد لم تستوعبه معظم الرحالة التي علمت مع المظهر الخارجي بوصفه علامة طبقية أحادية الدلالة (عطية، 2013، ص 64-65).

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

أما الحجاب فقد خضع في ادب الرحلات للنظرة الأوروبية السائدة فتحول إلى علامة مركزية دلت على اضطهاد المرأة، بوصفه حاجزا يمنعهم من رؤية المرأة "الحقيقية" لا بوصفه ممارسة ثقافية متعددة الوظائف والدلالات (بولوك، 2011، ص 57). هذا الفهم تجاهل أن الحجاب كان مرتبطا بمفاهيم الاحترام المجتمعي والانتماء الطبقي واللياقة العامة وأن أشكاله واستخداماته كانت تختلف باختلاف الزمان والمكان والبيئة الاجتماعية، ومن هنا وصفت ماري زوجة المقيم البريطاني ريج (1789–1876م) والتي زارت العراق عام 1820م في مذكراتها بان المرأة المحجبة في بغداد، ففي إحدى رسائلها، النساء اللواتي يدخلن الغرفة وهن يرتدين "حجاباً كثيفاً من الشاش الأسود فوق وجوههن" بأنهن "شخصيات تشبه الساحرات"(Finn, 2018, p. 29)، وهو ما يكشف عن تحيز ثقافي يرى في الحجاب عائقا بصريا ومعرفيا أكثر من كونه ممارسة اجتماعية ذات دلالة محلية. ومن جهة أخرى لاحظت خلال الانقلابات العنيفة في بغداد (1808–1821م) –صراعات المماليك للوصول الى السلطة– أن "احترام الأتراك وجنودهم للنساء المحجبات بشكل مذهل وهو ضاهى بأشكال مختلفة أرقى الأمم المتحضرة في أوروبا". هذا الاحترام منع تعرض النساء للعنف الجسدي أثناء تغيير الأنظمة. كما ذكرت "أن الحجاب في ذلك العصر كان يمنح المرأة حرية الحركة للخروج دون أن يتعرف عليها أحد، حتى لدرجة أن أزواجهن قد لا يميزونهن في الطريق"(Finn, 2018, pp.18–19). وهنا كشفت لنا تجربة ماري في بغداد عن ازدواجية في النظرة الاوربية للمرأة العراقية، فمن جهة هناك اعتراف بقيمة ما يوفره الحجاب والملبس من حماية للمرأة، ومن جهة أخرى هناك نفور ثقافي من "الحجاب" كونه يحجب الرؤية والمعرفة المباشرة، مما يجعله عائقاً أمام "العين المستكشفة" التي تسعى لاختراق الخصوصيات المحلية.

وانعكس هذا التفاوت الاجتماعي بوضوح على أنماط اللباس والزينة، التي أولى لها الرحالة الغربيون اهتماما لافتا معتبرين إياها مؤشرات مباشرة على مكانة المرأة ووضعها الاجتماعي. ففي المدن الكبرى، ركز الرحالة على عناصر اللباس التقليدي مثل "الإزار" بوصفه عباءة ساترة، و"البوشية" كشبكة سوداء

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

غطت الوجه، وقدم باكنغهام وصفا تفصيليا لنساء بغداد معتبرا هذا اللباس أداة للفصل الصارم بين المجالين العام والخاص ومفسرا إياه ضمن إطار ديني وأخلاقي، دون الالتفات إلى أبعاده الرمزية بوصفه لغة اجتماعية تعبر عن العمر، والحالة الزوجية، والانتماء الطبقي، والمناسبة الاجتماعي، دون الالتفات الى الرمزية الابعد والاجتماعية (Buckingham, 1827, Vol.1, pp. 381, 549).

وفي المقابل تكشف شهادات رحالة آخرين عن تنوع أنماط اللباس خارج مراكز المدن العربية الكبرى، اذ تشير المصادر إلى أن الرحالة لاحظوا تنوعاً كبيراً في اللباس خارج المدن الكبرى، فبينما ساد السواد والاحتجاب التام في المدن الحضرية، يصف الرحالة ريج حينما زار الشمال عام 1820م مظاهر الترف في زينة النساء الكرديات والأقليات في الشمال خاصا في الحفلات والمناسبات الاجتماعية، فذكر العصابات المرصعة بالذهب والحلي الفضية، بوصفها تعبيرا عن الثراء العائلي والمكانة الطبقية، اذ قال: "ملابسهم من حرير منديلات، أو بالأحرى شالات، من كل لون من ألوان قوس قزح، مثبتة اصطناعياً معاً في الأمام لتشكل نوعاً من التاج ارتفاعه حوالي قدمين. تنسدل أطراف الشالات خلفاً إلى أسفل حتى الكعبين. أولئك اللواتي يستطعن تحمله يزينن مقدمة تيجانهن بصفوف من الشرائط الذهبية العريضة، من كل منها يتدلى صف من زخارف صغيرة تشبه أوراق الذهب". ولم يتوقف انبهاره عند المظهر بل امتد ليرصد واقعا اجتماعيا مختلفا في السليمانية، اذ لاحظ تمتع النساء الكرديات بنوع نسبي من الحرية، تتجلى في خروجهن من المنازل من دون حجاب، ومشاركتهن في الأعمال اليومية، معتبرا ذلك حرية نسبية مقارنة بنساء المدن العربية المسلمة، وهو توصيف يعكس دهشة ثقافية أكثر مما يعكس تحليلا اجتماعيا دقيقا (Rich, 1836, Vol.1, pp. 338–339).

وفي البيئات الريفية والقبلية، لاحظ الرحالة أن النساء في البيئات الريفية والقبلية كن أقل التزاما بأشكال الحجاب الحضري، وهو ما فسروه غالبا بوصفه دليلا على تحرر نسبي. غير أن هذا التفسير تجاهل ذكر العوامل الوظيفية والبيئية التي فرضت أنماطا مختلفة من اللباس. فالعمل الزراعي والتنقل المستمر وحياة

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

الترحال يتطلبان لباسا عمليا يتكيف مع شروط البيئة، كما أن مفاهيم الشرف والضبط الاجتماعي في المجتمعات القبلية لم تكن أقل صرامة بل اتخذت أشكالا مغايرة، ومن ذلك وصفت بلنت البدويات في العراق عام 1878م قائلة: "يرتدين ثيابا بسيطة ذات لون اسود او ازرق داكن مصنوعة من القطن او الصوف.... تناسب حياة الترحال"، وهو وصف يبين العوامل البيئية والثقافية التي تشكل الحجاب كممارسة متغيرة (Blunt, 1881, Vol.2, p. 275).

كما توثقت كتابات الرحالة أمثال لايارد وجود تباين واضح بين ملابس النساء العربيات والكرديات وبين المسلمات وغير المسلمات من نصرانيات، إيزيديات، صابئيات، فقد تمتعت نساء تلك المكونات بهوامش أوسع من حرية الحركة والاختلاط في الفضاء العام مع تمسكهن بمنظومة أخلاقية محلية رصينة. وتكشف هذه التباينات عن أن اللباس لم يكن معيارا ثابتا للقمع أو التحرر بل ممارسة اجتماعية تفاوضت من خلالها النساء مع القيم السائدة والبيئة والهوية. كما اشار في كتابته الى وجود تباين واضح بين ملابس النساء العربيات (البدويات) والكرديات، فيقول: "العربيات يرتدين قميصاً رقيقاً ورداءً خشناً واسعاً مع وشاح مخطط ومنديل ملون، مزيناً بإكسسوارات واوشام، عكست حياة الترحال والعمل الشاق مع حرية محدودة في الفضاء العام...أما النساء الكرديات فكانت ملابسهن أكثر أناقة وثراءً، مع شعراً مضفراً مزيناً بعملات وخرز، مع حرية أكبر في الضيافة والتفاعل دون حجاب صارم، بسبب البيئة الجبلية"، كما برز عن وجود تباين اخر بين المسلمات وغير المسلمات، اذ قال: "الكلدانيات يرتدين قبعات مطرزة وقمصاناً غنية وسراويل حريرية، مع حرية في الاستحمام العلني والعمل الزراعي...أما الإيزيديات فملابسهن أكثر حرية، تشمل أردية حريرية وشعراً مزيناً بزهور وعملات، غير محجبات، يتجولن بحرية في المهرجانات مع التركيز على الطهارة"(Layard, 1849, Vol.1, pp. 151–152, 209, 251, 255, 342, 352).

وعليه، فإن قراءة صورة المرأة العراقية في مدونات الرحالة تفرض التعامل مع هذه النصوص بوصفها خطابا ثقافيا مشروطا بالخلفية الاستشراقية للكاتب، لا سجلا موضوعيا للواقع. فالملبس والحجاب لم يكونا

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

أدوات لإخفاء المرأة، بل وسائل تنظيم اجتماعي وإنتاج للمعنى داخل مجتمع متعدد الطبقات والانتماءات، وهو ما تجاهله كثير من الرحالة لصالح إعادة إنتاج صورة نمطية تخدم التصورات الأوروبية عن الشرق والمرأة فيه.

الزواج والبنية الأسرية:

أولى الرحالة اهتماما خاصا بمسألة الزواج والبنية الاسرية عند تناولهم لأوضاع المرأة العراقية، فصوروها بوصفها امرأة خاضعة لزواج رتبته الأسرة دون إرادة شخصية من المرأة في اطار مقارنات ضمنية بين النظام الاسري (الشرقي) ونظيره الأوربي، اضفت في النهاية الى احكام عامة تفتقر في كثير من الأحيان الى الدقة التاريخية، غير أننا عند الرجوع الى سجلات المحاكم الشرعية الخاصة بعقود الزواج، كشفت لنا صورة أكثر تعقيدا، إذ اكدت مشاركة النساء في إبرام عقود الزواج ووضع الشروط والمطالبة بحقوقهن في حال الطلاق، مما دل على فاعلية قانونية لا تنعكس على ما كتبه الرحالة بل تكشف فجوة معرفية ناتجة عن اعتماد الرحالة على السماع والانطباع، لا الملاحظة المباشرة وقد قدمت بعض الرحالات النساء تصحيحا جزيا لهذه الصورة(Niebuhr, 1792, Vol.1, p. 194)، اذ تشير جيرترود لوثيان بيل(1868–1926م) – مستكشفة وعالمة آثار بريطانية، شغلت منصب مستشار المندوب السامي البريطاني ولعبت دوراً محورياً في صياغة المشهد السياسي للعراق الحديث .(Bell, 1927, Vol.1, pp. 7–14)– الى ان الزواج كان يجري في الغالب ضمن اطار العائلة، اذ اعطت الولوية لابن العم الا ان هذا لم يمنع المرأة من ان تكون لها كلمة في اختيار الزوج، لاسيما في الطبقات العليا(Bell, 1927, Vol.2, p. 716)، وهو وصف عارض الصورة النمطية التي قدمها الرحالة الذكور.

واشار باكنغهام في رحلته التي زار العراق عام 1816م في وصفه للمجتمع البغدادي أن الزواج كان "مؤسسة عائلية أكثر من كونه علاقة فردية"، اذ لعبت الأسرة لاسيما الأمهات دورا محوريا في اختيار

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

الزوج وتحديد شروط الزواج لاسيما في المدن الرئيسية مثل بغداد والموصل، ورأى أن هذا النظام حد من حرية المرأة دون أن يدرك أنه كان يشكل أيضا شبكة حماية اجتماعية واقتصادية في بيئة تفتقر إلى مفهوم شبكات الرعاية الحديثة، وهو ما يبين كيف غفل الرحالة عن الأبعاد الوظيفية للأسرة كوحدة استمرار اجتماعي واقتصادي(Buckingham, 1827, Vol.2, p. 407).

كما تناول الرحالة في مدوناتهم شيوع ظاهرة الزواج المبكر في العراق، فيشير كارستن نيبور (1733–1815م) –عالم رياضيات وخرائط ألماني، قاد البعثة الملكية الدنماركية للعراق عام 1765م، حيث قدّم أول توثيق علمي وخرائط دقيقة لمدينة بغداد والمواقع الأثرية (Niebuhr, 1833, pp. 15–48)– والذي زار العراق عام 1765م إلى شيوع ظاهرة الزواج المبكر في بعض مناطق العراق، معتبرا ذلك دليلاً على تخلف العادات الشرقية إلا أن هذا التفسير يغفل عن الأبعاد الاقتصادية والديموغرافية التي فرضت هذه الممارسة، خاصة في المجتمعات الريفية والبدوية التي كانت تعتمد على تماسك الأسرة وتكاثرها لضمان الاستمرار الاقتصادي، وهو ما كشف عن تحيز ثقافي يقيس العادات المحلية بمقاييس أوروبية لا تنطبق على السياقات المختلفة، كما ان روبرت ميجنان – ضابط ومستكشف بريطاني، يُعد من أوائل الذين وثقوا آثار العراق ميدانياً، حيث قاد بعثة استكشافية عام 1827م لمسح تلال بابل والمناطق الأثرية (Rey, 2026, p. 33). هو الاخر أشار الى ان زواج الفتيات كان يتم على الاغلب نحو سن الثانية عشر لكنه في الوقت نفسه اكد على بروز علامات البلوغ عليهن، ومشيرا الى ان قساوة البيئة ساعدت في ذلك (Mignan, 1829, p. 242).

كما واثارت مسالة تعدد الزوجات الكثير من الرحالة، وغالبا ما قدمت على انها ظاهرة شائعة في المجتمع العراقي رغم إقرار البعض منهم أمثال لايارد عند ذكره لمسألة تعدد الزوجات، اذ قدمها بوصفها ظاهرة شائعة في المجتمع العراقي، مع أنه يقر بأنها كانت مقتصرة في الغالب على الطبقات الميسورة(Layard, 1849, Vol.1, pp. 150, 358)، وظهرت هذه الإشارة أن بعض الرحالة كانوا

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

واعين نسبيا بالفروق الطبقية عام 1881م، وإن لم يذهبوا بعيدا في تحليل أثرها على وضع المرأة، في حين قدمت ديولافوي في توثيقها لزيارتها للبصرة وبغداد تصحيحا لهذا التصور مشيرة إلى أن الرجل العراقي العادي من الطبقة الوسطى والفقيرة نادرا ما يتزوج بأكثر من واحدة؛ لأن تكاليف المعيشة والمهور تمنعه من ذلك، والتعدد هو ترف الأغنياء فقط(Dieulafoy, 1887, pp. 526–527, 584–585)، وهو وصف يعارض الصورة المبالغة ويبين الأبعاد الاقتصادية التي حدت من شيوع التعدد.

ومن خلال هذه الروايات المتعددة، يتضح أن صورة الزواج والأسرة في مدونات الرحالة لم تكن انعكاسا مباشرا للواقع بل هي نتاج تفاعل بين الواقع الاجتماعي ونظرة الرحلة وموقعه الثقافي وجنسه، وبناءً على ذلك، يصبح الفصل بين الحقائق التاريخية وبين الانطباعات الشخصية للرحالة ضرورة لأغنى عنها، فمن دون هذا الفرز لن نتمكن من تكوين فهم حقيقي ودقيق لدور المرأة ومكانتها الفعلية داخل المؤسسة الزواج والاسرة.

الدور الاقتصادي للمرأة العراقية:

كشفت مدونات الرحالة الأجانب على الرغم من تحيزاتها، عن بروز دور اقتصادي فاعل للمرأة العراقية خلال القرن التاسع عشر، لاسيما في البيئات الريفية والبدوية، اذ لم تكن المرأة عنصرا هامشياً أو تابعاً اقتصاديا فقط بل كانت ركيزة أساسية في إنتاج المعيشة واستقرار المجتمع. ورغم أن بعض الرحالة فسروا هذا الانخراط بوصفه دليلا على قسوة الحياة الشرقية، فإن أوصافهم نفسها تثبت – من حيث لا يقصدون – أن المرأة كانت مصدر قوة اقتصادية ومكانة اجتماعية، لا مجرد فاعل ثانوي (غازي، 2018، ص 24–30).

وخلافا للصورة النمطية التي رسخها الخيال الاستشراقي عن المرأة المحتجزة خلف الجدران، تكشف مذكرات ديولافوي ووليام كنيت لوفتوس (1820–1858م) – جيولوجي وعالم آثار بريطاني، اشتُهر باكتشاف زقورة أور ومجموعة عاج نمرود أثناء عمله في لجنة الحدود التركية–الفارسية ومسحه للمواقع

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

الأثرية ببلاد الرافدين.(Loftus, 1857, pp. 1–50)– الذي زار العراق عام 1849م عن انخراط نسوي واسع في عصب الاقتصاد المحلي، لا سيما في مناطق جنوب العراق والأهوار، اذ كانت النساء يشاركن في صناعة المشاحيف، وتربية الجاموس، وإنتاج الألبان وبيعها، وطحن الحبوب وإنتاج الخبز وبيعه في الاسوق المحلية، وإدارة الأسواق المحلية(Dieulafoy, 1887, pp. 115, 553; Loftus, 1857, p. 361). وقد أشار نيبور إلى أن المرأة الريفية لم تكن منتجة للاستهلاك المنزلي فقط، بل مزودة المدن بالغذاء (القيمر، الألبان، الأسماك)، اذ يقول "أن الزوجة في المجتمع الشرقي، لاسيما في المناطق الريفية، لا تعد عبئا ماليا بل مربحة لزوجها بسبب عملها"، مما جعلها حلقة مركزية في الاقتصاد المحلي (Niebuhr, 1792, Vol.2, pp. 213, 231).

وفي المناطق الجبلية، رصدت إيزابيلا لوسي بيرد (1831–1904م) – مستكشفة ومصورة بريطانية، تُعد أول امرأة تحصل على زمالة الجمعية الجغرافية الملكية، واشتهرت بتوثيقها الدقيق لرحلتها من بغداد إلى طهران عام (1890م).– (Bird, 1891, Vol.1, pp. vii–xiii) حينما زارت العراق عام 1891م الدور النسوي في اقتصاد المنسوجات والسجاد، اذ وثقت كيف أن عملية نسج السجاد كانت تتم بالكامل على أيدي النساء والأطفال في المنازل والأكواخ والخيام، وكيف انهن ينسجن اشكالاً مختلفة ومتنوعة معتمدين على ذاكرتهم، مؤكدة أن النساء كن منتجات اقتصاديات مستقلات، يتمتعن بقدرة بدنية وتنظيمية مكنتهن من ركوب الخيل وحماية القوافل ورعي الماشية(Bird, 1891, Vol. 1, p. 110; Vol. 2, p. 118) وهو ما يتناقض مع الرؤية الأوروبي للمرأة –الضعيفة– الشرقية. واشار وليام فرانسيس آينسورث (1807–1896م) – جراح وجيولوجي بريطاني، قاد بعثات استكشافية إلى العراق وكردستان وفارس (1836–1840)، ووفرت مؤلفاته وصفاً جغرافياً وجيولوجياً دقيقاً لمناطق آشور وبابل وكلداء– (Ainsworth, 1842, pp. v–xii) في زيارته لرحله الاستكشاف عام 1872م إلى أن النساء كن يضطلعن بزراعة الحبوب وجني المحاصيل خاصة في فترات غياب الرجال أوقات الحروب والازمات، ما يدل على أن تقسيم

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

العمل لم يكن صارما بين الجنسين بل مرنا تفرضه الضرورات الاقتصادية والبيئة. وبهذا الصدد يذكر ريج وصفا النساء في القبائل الكردية بانهن عماد الاسرة الاقتصادي فهن المسؤولات عن إدارة الموارد اليومية وتربية الأطفال وحمل الاحمال اثناء التنقل مما يضمن الاكتفاء الذاتي للأسرة في البيئة القاسية (Rich, 1836, Vol.1, pp. 149, 224, 236).

أما في البادية فقد قدم ميجيان توصيفا دقيقا لدور المرأة في رعي الماشية وحلبها وتصنيع الألبان والاجبان وصناعة المنسوجات من صوف الأغنام وجلب المياه وتنظيم شؤون التنقل ونصب الخيام (Mignan, 1829, pp. 92, 243)، وهو ما عكس معرفة اقتصادية عملية وإدارية عالية. واستطاعت لايارد أن تبرز دور المرأة البدوية الاقتصادي كمديرة للموارد المنزلية والتربوية، مما ضمن الاكتفاء الذاتي للأسرة فهي عمود الخيمة الاقتصادي (Layard, 1849, Vol. 1, pp. 14, 424; Layard, 1849, Vol. 2, p. 80). ومثلت هذه الشهادة إحدى أدق الصور التي تبرز المكانة الحقيقية للمرأة في المجتمع البدوي. كما قدمت بلنت وصفا دقيقا لهن بقولها: "إنهم يعملون بجد ويكدحون، ويقومون بجميع أعمال المخيم: جلب الحطب وسحب الماء ونصب الخيام وتفكيكها وحلب النعاج والإناث من الإبل وإعداد اللبن... وطهي العشاء... في الصباح يخرجون جميعا لجمع الحطب ليومهم، مصطحبين معهم جملًا أو حمارًا، وكلما التقينا بهم وهم منشغلون في عملهم هذا، كانوا يبدون في أقصى درجات السعادة"(Blunt, 1879, pp. 214–215).

ورغم هذا الحضور الاقتصادي الواضح مال كثير من الرحالة إلى تفسير عمل المرأة بوصفه نتيجة فقر أو بدائية وهو تفسير عكس خلفية ثقافية أوروبية حصرت العمل الحقيقي في الأجر النقدي والفضاء العام، وتتجاهل أن الإنتاج المنزلي والزراعي كان يشكل العمود الفقري للاقتصاد التقليدي. ففي المدن الكبرى، بدا الدور الاقتصادي للمرأة أكثر تخفيا، لكنه لم يكن أقل أهمية؛ إذ اشار باكنغهام إلى أن نساء الطبقات الوسطى والفقيرة كن يضطلعن بصناعة النسيج القطني، والتطريز بالذهب، وتجهيز الأغذية، وإدارة موارد البيت

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

بوصفه وحدة إنتاجية لا استهلاكية فقط(Buckingham, 1827, Vol.2, pp. 28–29)، وسجل لوفتوس في زيارته عام 1853م ولايارد مشاركة النساء في الحرف المنزلية مثل غزل الصوف وصناعة الحصران والجوارب الصوفية الملونة والأغذية وبيعها في الأحياء الشعبية، مما دل على أن القيود الاجتماعية على عمل المرأة لم تكن مطلقة بل خاضعة للتفاوت الطبقي والاقتصادي. غير أن هذه الأدوار غالبا ما قدمت في النص الرحلي بوصفها ظواهر ثانوية دون ربطها بالبنية الاقتصادية العامة فتحول العمل النسوي إلى قيمة مادية منزوعة الاعتراف الاجتماعي (Layard, 1894, pp. 80, 119, 141; Loftus, 1857, pp. 5, 70, 272).

واكدت السجلات المحلية ولا سيما وثائق المحاكم الشرعية والأوقاف، أن النساء كن يمتلكن العقارات ويستثمرن رؤوس أموالهن ويمولن المؤسسات الدينية والخدمية، وهي معطيات نادرا ما ظهرت في أدب الرحلات لأنها تناقض صورة المرأة التابعة اقتصاديا. ومن ثم فإن تغييب الدور الاقتصادي للمرأة لم يكن سهوا بريئا، بل نتيجة تصور أيديولوجي ربط الفاعلية الاقتصادية بالحداثة الأوروبية وحدها (رؤوف، 2000، ص 60–61).

وعليه فإن إعادة قراءة مدونات الرحالة مقرونة بالمصادر المحلية تكشف أن المرأة العراقية كانت عنصرا منتجا ومؤثرا في الاقتصاد والمجتمع، وأن اخفاء دورها في السرد الرحلي يعود إلى محدودية زاوية الرؤية الاستشراقية لا إلى غياب الفعل الاقتصادي نفسه.

التعليم والثقافة العامة لدى المرأة:

شكل موضوع التعليم والثقافة العامة لدى النساء العراقيات أحد أكثر المحاور التباسا في كتابات الرحالة الأجانب خلال القرن التاسع عشر، إذ غالبا ما قدم من خلال منظور اختزالي ربط بين غياب التعليم النظامي والتخلف الاجتماعي، دون الالتفات إلى أنماط التعلم غير الرسمي والثقافة الشفوية التي شكلت الإطار المعرفي السائد في المجتمع العراقي آنذاك. فقد اعتمد الرحالة في تقييمهم لمستوى تعليم المرأة على

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

معيار المدرسة والقراءة والكتابة بوصفه المقياس الوحيد للمعرفة لديهم، وهو معيار مستمد من النموذج الأوروبي لا من السياق العثماني المحلي الذي لم يكن فيه التعليم محصورا بالمؤسسات النظامية فقط، بل موزعا بين البيت والمسجد والمجالس الدينية.. الخ، الأمر الذي أدى إلى استنتاجات مضللة عن أمية المرأة النساء.

يشير ريج حينما كان ممثل شركة الهند الشرقية البريطانية في بغداد عام 1820م إلى أن تعليم النساء في بغداد كان محدودا ومقتصرا في الغالب على تعلم القراءة الأولية لأغراض دينية فقط كقراءة القرآن والأدعية، غير أن هذا الوصف عكس تصورا ضيقا للتعليم بوصفه مهارة كتابية فقط متجاهلا الوظيفة الاجتماعية للمعرفة في المجتمع المحلي. وذهب جيمز سلك باكنغهام إلى أبعد من ذلك حين يرى أن ندرة القراءة والكتابة بين النساء تشكل عائقا أمام "تقدمهن"، وهو حكم ضعيف يتجاهل أن الثقافة العراقية كانت تعتمد بدرجة كبيرة على الحفظ والرواية الشفوية ونقل الأعراف والأمثال والمعارف الطبية الشعبية، وهي أشكال معرفة لا تقل فاعلية في تنظيم الحياة الاجتماعية.

وعلى النقيض من هذه القراءات التبسيطية، قدمت بعض الرحلات صورا أكثر وضوحا لثقافة النساء، اذ اشارت جيرترود بيل إلى امتلاك عدد كبير من النساء ذاكرة شعرية قوية وقدرتهن على حفظ الأنساب وسرد القصص والأحداث التاريخية، مؤكدة أن هذا النوع من المعرفة كان يؤدي وظيفة جوهرية وترسيخ الانتماء الاجتماعي داخل المجتمع، فوصفت المجالس النسوية في بيوتات بغداد العريقة بأنها فضاءات ثقافية بامتياز، اذ تتداول الأشعار وتناقش الشؤون الاجتماعية بعمق معرفي لافت، فذكرت كيف ان نساء الطبقة الراقية اجتمعن في "حفل شاي ضخم" في عشرينيات القرن العشرين في حديقة بيتها لمناقشة مشروع بناء مستشفى خاص بالنساء، اذ أبدين حماساً كبيراً ووعياً بضرورة المساهمة المالية لتحقيق هذا الهدف المجتمعي(Bell, 1927, Vol.2, pp. 482–483). كما تسجل بيرد ملاحظات دقيقة حول معرفة النساء بالأعشاب وطرق العلاج الشعبي، معتبرة أن هذه المعارف نتاج تجربة طويلة وتعليم متوارث، لا ممارسات

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

عشوائية أو "خرافية" كما وصفها بعض الرحالة. كما اشارت إلى أن بعض نساء الطبقات العليا في المدن الوسطى كن يجدن قراءة النصوص الدينية ونسخها مع دراية واسعة بالثقافة الشعرية، لاسيما في البيوت التي حافظت على اعراف علمية متوارثة مشيرة إلى تشكلهن لشبكات دعم اجتماعي تساهم في نقل الخبرات والحكمة وتخفيف ضغوط الحياة الزوجية. ما يفند صورة الأمية الشاملة ويؤكد وجود تفاوت طبقي ومديني في مستويات التعليم (Bird, 1891, Vol. 2, pp. 74–75, 252–254).

وظهرت الدراسات التاريخية المحلية أن النساء، ولا سيما في الأسر الثرية أو الدينية في بغداد والموصل كن أكثر حظا في تلقي التعليم وبعضهن شاركن في بناء ورعاية الأوقاف أو تركن مراسلات ووثائق، غير أن هذه النماذج قدمت في أدب الرحلات بوصفها استثناءات نادرة، لا مؤشرات على وجود ثقافة نسوية متعلمة داخل المجتمع (العلاف، 2009). وإلى جانب ذلك اكتسبت النساء معرفة عملية واسعة من خلال الخبرة اليومية شملت التوليد والتمريض الشعبي وإدارة شؤون الصحة داخل الأسرة، وهي معارف أبدى بعض الرحالة دهشة من دقتها، لكنهم غالبا ما جردوها من قيمتها المعرفية عبر وسمها بالبدائية، دون محاولة فهم منطقها التجريبي أو دورها الحيوي في مجتمع محدود الموارد الطبية الحديثة (نجار، 2022، ص 737–738).

ويفضي التحليل النقدي إلى أن غياب التعليم النظامي لا يعني غياب الثقافة، وأن المرأة العراقية كانت حاملة لأرث ثقافي شفوي وعملي أسهم في إعادة إنتاج البنية الاجتماعية واستمراريتها، وأن تصوير أمية المرأة في أدب الرحلات لم يكن توصيفا موضوعيا بقدر ما كان بناء معرفيا استشراقيا نتج عن عجز الرحالة عن التعرف على أنماط تعليم لا تشبه نماذجهم الثقافية. ومن ثم، فإن إعادة تقييم تعليم النساء تقتضي توسيع مفهوم التعليم ذاته، وربطه بوظيفته الاجتماعية، لا اختزاله في معيار القراءة والكتابة وحدهما.

المعتقدات الدينية والطقوس الاجتماعية:

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

شكلت المعتقدات الدينية والطقوس الاجتماعية وأحدة من أكثر الحقول التي استقطبت اهتمام الرحالة الأجانب عند تناولهم لحياة المرأة العراقية خلال القرن التاسع عشر، لكونها – في تصورهم – المفتاح الأبرز لفهم ما أسموه (العقلية الشرقية). غير أن هذه الأوصاف جاءت في الغالب محمولة بنظرة مزدوجة جمعت بين الدهشة وسوء الفهم، خصوصا أن معظم الممارسات الدينية والطقسية النسوية كانت تجري داخل فضاءات مغلقة لا تتيح للرحالة الأجانب الدخول اليها، ولا سيما الرجال سوى ملاحظات جزئية وبسيطة. وذكر غويوم أنطوان أوليفيه (1756–1814م) –عالم حشرات ونباتي فرنسي، وثّق مشاهداته العلمية عن آثار ونباتات بغداد خلال بعثته للدولة العثمانية وفارس بمنتصف القرن الثامن عشر، مما عزز التوثيق العلمي للمنطقة–(Bernard, 1997) حينما زار العراق عام 1796م مشاركة النساء في بغداد في المناسبات الدينية، ولا سيما في شهر محرم والموالد والأعياد ولكن من أماكن معزولة مثل "المقصورة المخصصة للنساء المزودة بشباك خشبي ضيق" (المشربية) التي تطل على ساحة الاحتفال، مما يمنعهن من الاختلاط المباشر ويجعلهن مراقبات للمشهد من خلف ستار، إلا أنه يكتفي بوصفها مشاهد طقسية غريبة دون تحليل دلالاتها الاجتماعية أو وظائفها التكافلية(Olivier, 1801, p. 80). وقدم باكنغهام وصفا لمجالس العزاء النسوية مشيرا إلى انها كانت تدار من قبل الملاية التي تقرأ القران والتواشيح الدينية، وما رافقها من مظاهر البكاء واللطم ورافعا حكما قيميا يعدها (تعبيرا مفرطا عن العاطفة)، متجاهلا دور هذه المجالس بوصفها فضاءات لإعادة إنتاج الروابط الاجتماعية، والتفريغ النفسي، وتداول القيم الدينية بين النساء (Crawford, 2021, p. 22).

في مقابل هذا التناول السطحي قدمت بعض الرحلات، ولا سيما النسوية منها، قراءة أكثر تركيبا لدور المرأة الديني والاجتماعي، إذ اشارت بيل إلى أن النساء كن الفاعل في نقل التقاليد الدينية وتعليم أبنائهم وبناتهم الطقوس والقيم مؤكدة أن استمرارية البنية الدينية للمجتمع كانت تعتمد بدرجة كبيرة على هذا الدور النسوي غير المعلن، كما اشارت الى انهن كن يصطحبن أطفالهن لزيارة "المزارات" وأضرحة الأولياء وهم

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

في أبهى حلتهم حاملين أغصان النباتات كجزء من الطقوس لترسيخ هذه القيم في نفوسهم (Bell, 1927, Vol.1, p. 94). كما سلطت ديولافوي الضوء على الطقوس الاجتماعية النسوية غير الدينية مثل مراسيم الولادة والزفاف والعناية بالمولود الجديد.. الخ، مبينة أنها كانت تدار بالكامل من قبل النساء، بما عكس وجود مجال واسع من الاستقلالية والتنظيم الداخلي بعيدا عن الهيمنة الذكورية المباشرة (Dieulafoy, 1887, pp. 61, 106, 178). واضافت بيرد بعدا آخر حين اشارت إلى أن الطقوس النسوية، لا سيما في كردستان حملت وظائف علاجية وصحية، اذ كانت النساء يجتمعن للدعاء وتبادل الخبرات الطبية الشعبية، والتي امتزجت بالمعتقدات الروحية، اذ كانت النساء يستخدمن التمائم والتعاويذ كجزء من العلاج، مثل مضغ وبلع آيات من القرآن مكتوبة على الورق أو ربط نصوص دينية بجلود صغيرة على الذراع للوقاية من الأمراض أو طرد "الأرواح الشريرة"(Bird, 1891, Vol. 2, pp. 72, 75)، وهو ما عوض جزئيا غياب المؤسسات الطبية الحديثة.

واحتل الدين ولا سيما الإسلام موقعا مركزيا في تفسيرات الرحالة لأوضاع المرأة، إذ جرى التعامل معه بوصفه العامل الحاسم – وأحيانا الوحيد – المحدد لسلوك النساء وأدوارهن، في تجاهل واضح لتداخل الدين مع العرف والاقتصاد والبنية الاجتماعية، وهو ما حول الدين في النص الرحلي إلى إطار تفسيري تبسيطي معد مسبقا. وغالبا ما فسر التزام النساء بالممارسات الدينية بوصفه خضوعا أو طاعة عمياء، في حين ظهرت القراءة النقدية أن التدين شكل للنساء مصدرا للهوية والشرعية الاجتماعية وأداة للتأثير داخل الأسرة والمجتمع، لاسيما في المدن الدينية مثل النجف وكربلاء، اذ وفرت المجالس والطقوس الجماعية فضاءات حضور عام للنساء لم يستوعبها الرحالة ضمن تعريفهم الضيق للفضاء العام (Bell, 1927, Vol.1, p. 290; Jabbra, 2006, pp. 236–237).

وارتبط هذا التناول كذلك بمفهوم الشرف الذي صوره الرحالة بوصفه نظاما قمعيا موجها ضد النساء فقط، في حين تشير الدراسات الاجتماعية إلى أن الشرف كان منظومة أخلاقية جماعية نظمت سلوك

الرجال والنساء معا، وإن كان العبء الأكبر منه يقع على المرأة، التي اضطلعت بدور فاعل في حماية سمعة الأسرة وضبط العلاقات الاجتماعية والتوسيط في النزاعات. وظهر التحليل أن الخطاب الرحلي استخدم الدين والأخلاق بوصفهما أدوات حكم أخلاقي، لا مفاتيح فهم اجتماعي فصور المرأة العراقية كضحية دائمة، متجاهلا كونها فاعلا يفاوض القيم ويعيد إنتاجها داخل نظام أخلاقي مرن. وبذلك، فإن تفكيك النصوص ان الدين لم يكن قيدا يطوق المرأة العراقية، بل كان ساحة تثبت فيها حضورها وتشارك في صنع طقوسها. ان تلك الممارسات التي رآها الرحالة قيودا كانت في الحقيقة نظاما اجتماعيا استطاعت المرأة من خلاله انتزاع هامش كبير من الحرية والمشاركة في إدارة المجتمع.

المرأة العراقية بين المدينة والريف والقبيلة: التنوع الاجتماعي في كتابات الرحالة:

اعتمد الرحالة الأجانب في توصيفهم للمرأة العراقية على تقسيمات ثنائية مبسطة، في مقدمتها التمييز بين المرأة الحضرية والمرأة الريفية أو القبلية وهو تقسيم بدا في ظاهره وصفا اجتماعيا، لكنه لم يخلُ من الاحكام المسبقة والنظرة الاستشراقية، جعلت من الفروق البيئية والاقتصادية أساسا لترتيب النساء ضمن سلم التحضر. ففي المدن الكبرى مثل بغداد والموصل والبصرة، صور الرحالة المرأة بوصفها أكثر احتجابا وأقل حضورا في الفضاء العام، وفسروا هذا الاحتجاب على أنه دليل خضوع اجتماعي تام، متجاهلين أنه كان نتاج بنية حضرية تقوم على الخصوصية وتنظيم العلاقات الاجتماعية وحماية السمعة العائلية. فالمرأة الحضرية لم تكن غائبة عن الحياة الاجتماعية قط، بل كانت فاعلة داخل شبكات معقدة من القرابة والزيارات والاقتصاد المنزلي والعمل الخيري، وهي مجالات لم تدخل ضمن زاوية الرؤية الرحلية. ويعكس وصف جيمز سلك باكنغهام للمرأة البغدادية بوصفها (محجوبة خلف الجدران) (Buckingham, 1827, Vol. 2, p. 494)، هذا الحكم القيمي الذي اختزل الاحتجاب في معنى التخلف، دون إدراك لوظائفه الاجتماعية.

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

في المقابل لاحظ الرحالة حضور النساء في الريف والمجتمعات القبلية في العمل الزراعي والتنقل ورعاية المواشي والمشاركة اليومية في شؤون المعيشة، وفسروا هذا الحضور غالبا بوصفه مؤشرا على (حرية) نسبية قياسا بالمدينة، وهو تفسير تجاهل أن طبيعة الاقتصاد الريفي والبدوي فرضت مشاركة جميع أفراد الجماعة في العمل رجالا ونساء، وأن القيود الاجتماعية والأخلاقية في المجتمع القبلي لم تكن أقل صرامة، بل مختلفة في آلياتها وأشكالها. وقد أولى الرحالة اهتماما خاصا بالمرأة البدوية واصفين إياها بالقوة الجسدية والجرأة والقدرة على التعبير وأحيانا بالتأثير في قرارات القبيلة، إلا أن هذا التوصيف جاء في كثير من الأحيان مشبعا بنزعة رومانسية ترى في المرأة البدوية نموذجا طبيعيا خارج قيود الحضارة، دون الاعتراف بأنها كانت خاضعة بدورها لنظم شرف صارمة وتوازنات اجتماعية دقيقة. وبرز وصف بلنت للنساء البدويات بأنهن "لا يحق للنساء التحدث إلى أي رجل سوى أقرب أقربائهن، ولا يمكنهن القيام بذلك دون وجود عشرين شاهداً..." (Blunt, 1879, p. 226) هذا التداخل بين القوة والضبط الاجتماعي.

إن تصوير المرأة الريفية أو القبلية بوصفها (أكثر تحررا) عكس فهما سطحيا لمفهوم الحرية ذاته، إذ لم تكن الحرية في هذه السياقات مرتبطة بظهور الجسد في الفضاء العام، بل بالانتماء الجماعي والحماية الاجتماعية والقدرة على أداء الدور دون خرق المعايير الثقافية. وكشف هذا القصور أن الرحالة قاسوا أوضاع النساء بمقاييس حضرية أوروبية لا تنطبق على الواقع العراقي. تظهر المقارنة بين حياة المدينة والريف والبادية ان المرأة العراقية لم تكن يوما قالبا واحدا، بل كانت طيفيا غنيا من التجارب المتنوعة التي صقلتها ظروف البيئة والاقتصاد والروابط الاجتماعية، الا ان ادب الرحلات سقط في فخ الاختزال فحصر هذا التنوع في مقارنات سطحية وضعت النساء في قوالب متعارضة، مما حجب الرؤية عن فهم التعقيد الحقيقي والعمق الأصيل للمجتمع العراقي.

صورة المرأة بين الهيمنة الذكورية والمقاومة اليومية في كتابات الرحالة:

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

شكل الرحالة الغربيون المجتمع العراقي بوصفه مجتمعا ابويا صارما، مارست فيه السلطة الذكورية هيمنة شبه مطلقة على النساء، سواء داخل الأسرة أو في المجال الاجتماعي الأوسع. ورغم أن السلطة الذكورية كانت واقعا تاريخيا لا يمكن إنكاره، فإن هذا التصوير اختزل بنية السلطة في علاقة أحادية الاتجاه تقوم على القمع والخضوع، متجاهلا طبيعتها المركبة وآليات التفاوض والمقاومة اليومية التي مارستها النساء داخل هذا النظام. وقد أدى هذا الاختزال إلى إعادة إنتاج صورة نمطية للرجل العراقي بوصفه صاحب القرار المطلق، مقابل تصوير المرأة كفاعل سلبي منزوع التأثير (أبو خيران، 2020).

غير أن الدراسات الاجتماعية والتاريخية كشفت أن السلطة داخل الأسرة العراقية لم تكن متمركزة بيد الرجل وحده، بل كانت موزعة وفق اعتبارات العمر والمكانة الاجتماعية وصلات القرابة. فقد امتلكت أن النساء خاصة الأمهات او الزوجات الكبيرات في السن يمتلكن نفوذا كبيرة النساء، ولا سيما الأمهات وكبيرات السن، نفوذا فعليا في توجيه القرارات العائلية وترتيب الزيجات وإدارة النزاعات الداخلية، وهي أدوار لم يلتقطها الرحالة بسبب تركيزهم على مظاهر السلطة الرسمية والعلنية (مرعب، 2002، ص 42–43). وظهر هذا القصور التحليلي في وصف لايارد للأسرة العراقية كنظام يهيمن عليه الرجل، رغم إشارته العديدة والعابرة إلى دور الأمهات في توجيه الأبناء، وهي إشارة تكشف عن وجود فجوة بين الملاحظة الوصفية والتحليل الاجتماعي العميق (Layard, 1851, pp. 24, 27). فيما كشفت الرحالة النساء عن وجود سلطة خفية غير معلنة تديرها النساء، فقد أكدت بلنت في كتاباتها وفي اكثر من موضع داخل الاسرة حتى وان بدا الرجال هم الحكام الظاهرون وهذا يتوافق مع ما ذكرته الرحالات الاخريات عند وصفهم لسلطة المرأة في المجتمعات البدوية والعربية (Blunt, 1881, Vol. 1, pp. 170–171).

كما تجلت المقاومة النسوية في العراق العثماني غالبا في أشكال صامتة وغير صدامية، مثل توظيف القوانين الشرعية للمطالبة بالحقوق أو استخدام شبكات القرابة والعلاقات العائلية لحماية المصالح أو حتى اختيار الصمت بوصفه استراتيجية اجتماعية واعية. غير أن أدب الرحلات لم يتعامل مع هذه الممارسات

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

بوصفها أشكالا من الفاعلية بل فسرها على أنها دليل ضعف أو خضوع نتيجة غياب المفهوم الأوروبي للاحتجاج العلني بوصفه الشكل الوحيد للمقاومة، وقد استخدمت النساء الدين ذاته الذي صوره الرحالة كأداة قمع، بوصفه مصدرا للشرعية القانونية والاجتماعية. فقد لجأت نساء كثيرات إلى المحاكم الشرعية للمطالبة بالنفقة أو الطلاق أو استعادة المهور مستندات إلى نصوص فقهية وقانونية واضحة وهو ما يكشف أنهن لم يكن مجرد متلقيات للسلطة، بل فاعلات في إعادة إنتاجها وتوجيهها (Worringer, 2021, p. 47; Vinthagen & Johansson, 2013, p. 4). وتؤكد بيل هذه الملاحظة حين أشارت في مذكراتها إلى أنهن كن يستخدمن الشريعة لحماية مصالحهن في مواجهة السلطة الذكورية (Bell, 1927, Vol.1, pp. 303-304).

وفي السياقات القبلية، اكتسبت بعض النساء نفوذا استثنائيا عبر النسب أو الحكمة أو القدرة على الوساطة، وهي ظاهرة أشار إليها بعض الرحالة، لكنهم تعاملوا معها بوصفها استثناء ثقافيا أو غرابة اجتماعية لا تستحق التحليل. غير أن هذه الحالات كشفت أن السلطة الذكورية لم تكن بنية جامدة، بل نظاما قابلا للتفاوض، يتغير بتغير الظروف الاجتماعية والاقتصادية. وتصف بلنت سلطة النساء البدويات "ومع ذلك فإن قلة قليلة منهن يتمتعن بنفوذ حقيقي على أزواجهن، بل وحتى على قبائلهم من خلال ازواجهن. ففي أكثر من خيمة يوجد شيخ، ...يتم تسوية شؤون القبيلة السياسية في النصف الاخر المخصص للنساء من الخيمة"، وهنا تصف زوجة أحد الشيوخ بأنهن يمتلكن قدرة فعلية على حل النزاعات والوساطة بين القبائل، ولا يمكن اختزالهن في صورة الضحية السلبية (Blunt, 1881, Vol. 2, p. 398).

وعليه، فإن اختزال علاقة المرأة العراقية بالسلطة في ثنائية الهيمنة/الخضوع يعكس قصورا تحليليا واضحا في أدب الرحلات. فالنساء لم يعشن خارج السلطة بل داخلها، مستخدمات أدواتها وحدودها لإعادة تشكيل مواقعهن الاجتماعية. ومن هنا، فإن الاعتراف بأشكال المقاومة الصامتة لا يقل أهمية عن تحليل البنى الذكورية ذاتها.

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

دراسة نقدية مقارنة لآراء الرحالة:

شكلت المقارنة بين كتابات الرحالة الرجال وروايات الراحلات النساء أداة تحليلية مركزية لفهم الصورة المركبة للمرأة العراقية خلال القرن التاسع عشر. فقد عكست كتابات الرحالة الرجال في الغالب منظورا أوروبيا يربط الفاعلية الاجتماعية بحضور المرأة في الفضاء العام، وفسر غيابها عن هذا الفضاء بوصفه دليلا على التخلف أو القمع. وظهر هذا بوصف جيمز سلك باكنغهام للمرأة العراقية بوصفها حبيسة المنزل، معتبرا هذا الغياب مؤشرا على انحطاط البنية الاجتماعية. وكشف التوصيف عن نظرة معيارية أوروبية تفترض أن التأثير لا يتحقق إلا عبر الظهور العلني، متجاهلة أنماطا أخرى من السلطة والعمل الاجتماعي (أبو خيران، 2020).

في المقابل، قدمت الراحلات، مثل ليدي آن بلنت وجان ديولافوي، صورة أكثر تعقيدا وواقعية لدور المرأة العراقية، نتيجة قدرتهن على دخول الفضاءات النسوية المغلقة أمام الرجال، كالحريم والمجالس الداخلية. فقد أشارت بلنت إلى أن النساء في المجتمعات البدوية كن يتحملن مسؤوليات جوهرية تتعلق بالتنقل وتنظيم الإقامة وإدارة الشؤون الاقتصادية اليومية (Blunt, 1879, pp. 214–215)، وهو ما يضعهن في قلب البنية الاجتماعية لا على هامشها. كما أكدت ديولافوا أن المرأة الحضرية لم تكن مجرد فاعل منزلي سلبي بل مديرة نشطة للإنتاج الأسري وحافظة لمعرفة شفوية التي تنظيم الحياة الاجتماعية، فضلاً عن ان المنزل هو مملكتها الحقيقية (Dieulafoy, 1887, pp. 106, 179).

وظهر التحليل النقدي أن هذا التباين في التصوير لا يعود فقط إلى اختلاف الملاحظات، بل إلى اختلاف مواقع الرؤية نفسها. فالرحالة الرجال اعتمدوا على الرصد الخارجي والمشاهدات العامة، في حين بنت الراحلات وصفهن من الداخل الاجتماعي، الامر الذي وفر لهن استيعابا أعمق لأليات القوة والعمل في تفاصيل الحياة اليومية، ويعزز وليام فرانسيس أينسورث (1807–1896م) هذه الملاحظة حين أقر بتشابه

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

أدوار النساء في البيئات الريفية والحضرية، رغم أن هذا التشابه ظل غائبا عن معظم الروايات الرجالية (Ainsworth, 1842, p. 299).

كما أشار كارستن نيبور إلى أن نظرة الرحالة الرجال كثيرا ما اختزلت المرأة في إطار الزواج والعائلة، متجاهلة أدوارها الاقتصادية والاجتماعية الأوسع، ولا سيما في الزراعة والرعي والحرف اليدوية. وكشف هذا الاختزال عن تحيز معرفي يسقط المعايير الأوروبية على مجتمع مختلف البنية، ويقصي أشكال الفاعلية التي لا تنسجم مع مفهوم العمل العام السائد في أوروبا الحديثة (Niebuhr, 1792, Vol. 1, pp. 169–177).

وتؤكد روايات الرحالة أنفسهم أن الخلفية الثقافية والوطنية للمؤلف لعبت دورا حاسما في تشكيل صورة المرأة العراقية. فقد ركز كثير من الرحالة الأوروبيين على عناصر مثل الجمال والمظهر والمرجعية الدينية بوصفها مفاتيح تفسيرية أساسية، ما أدى إلى تغييب الأدوار الاقتصادية والاجتماعية الفعلية للنساء. وقد وصف لايارد هذا النمط من التغييب بما يمكن تسميته في النقد التاريخي بـ(الإغفال المحلي)، حيث حذفت الممارسات اليومية لصالح صور نمطية شاملة.

وعليه ظهر تحليل نصوص الراحلات—ومن بينهن ليدي آن بلنت، جان ديولافوي، وإيزابيلا بيرد—قدرة أكبر على تمثيل الدور المتعدد للمرأة العراقية في السياقين البدوي والحضري، نظرا لاعتمادهن على الملاحظة المباشرة للحياة الخاصة والتفاصيل اليومية. وتؤكد هذه المقارنة أن التوجه النسوي في أدب الرحلات لا يقدم مجرد سرد بديل، بل ساهم في تصحيح الصور المشوهة وتقليص التحيزات الاستشراقية، عبر إعادة إدماج المرأة بوصفها فاعلا اجتماعيا واقتصاديا كامل الأهلية.

التوصيات:

Journal of Historical and Cultural Studies, Vol.17, No. (70), (2026): 541 – 474
DOI: https://doi.org/10.25130/jhcs.17.70.26.2026

بناءً على النتائج التي تم التوصل إليها، يوصي الباحث بما يلي:

1. ضرورة النقد المنهجي: عدم الاعتماد المطلق على أدب الرحلات كمصدر أساسي للتاريخ الاجتماعي، بل يجب إخضاعه للنقد الخارجي والداخلي ومقارنته بالوثائق المحلية (كسجلات المحاكم الشرعية، ووثائق الأوقاف) لضبط الدقة التاريخية.
2. تعميق الدراسات الجندرية: توجيه البحوث المستقبلية نحو دراسة "تاريخ المرأة" في العراق من خلال المصادر المحلية الشفوية والمكتوبة، لتجاوز السرديات الاستشراقية التي طغت على فترة القرن التاسع عشر.
3. ترجمة وتحليل مدونات الرحالة: تشجيع ترجمة مدونات الرحالة الأوروبيين إلى اللغة العربية، مع إرفاقها بدراسات نقدية تحلل الخلفيات المعرفية والسياسية للرحالة، بدلاً من نشرها كسرد تاريخي مباشر.
4. تفكيك المفاهيم :إجراء دراسات تفصيلية تفكك مفاهيم مثل "الشرف"، "الحجاب"، و"الحريم" في السياق العراقي آنذاك، بعيداً عن التفسيرات الغربية المسبقة.

الخاتمة:

توصل البحث من خلال دراسته التحليلية النقدية لصورة المرأة العراقية في أدب الرحلات الأوروبي خلال القرن التاسع عشر إلى جملة من النتائج الهامة، أبرزها أن هذه المدونات لا تشكل مرآة عاكسة للواقع الاجتماعي العراقي بقدر ما هي "بناء نصي" محكوم بخلفية الرحالة الثقافية، ودوافعه السياسية أو العلمية، ونظرته الاستشراقية التي مالت غالباً إلى اختزال تعقيدات المجتمع العراقي في صور نمطية، لا سيما فيما يتعلق بمفاهيم "الحريم" والعزلة الاجتماعية.

ومع ذلك، فقد كشفت الدراسة –رغم التحيزات القائمة– أن المرأة العراقية كانت فاعلاً اجتماعياً واقتصادياً حقيقياً، خاصة في الريف والبادية حيث شاركت بقوة في الإنتاج الزراعي والحيواني، وحتى في المدن حيث أدارت الاقتصاد المنزلي وامتلكت العقارات، خلافاً للصورة النمطية التي صورتها ككائن سلبي معزول. وقد أثبت البحث أن "جنس الرحالة" كان عاملاً حاسماً في دقة الوصف؛ إذ بينما قدم الرحالة الرجال وصفاً خارجياً وسطحياً للفضاءات العامة، استطاعت الرحالات الأوروبيات اختراق الفضاء الخاص (الحريم) وتقديم وصف أكثر عمقاً ودقة للروابط الاجتماعية النسوية والدور الفعلي للمرأة داخل الأسرة.

وأخيراً، أظهرت الدراسة تبايناً واضحاً في أوضاع النساء بين البيئات الحضرية والقبلية، وكذلك بين المكونات الدينية المختلفة، وهو تنوع غفل عنه الكثير من الرحالة لصالح تعميم أحكامهم على "الشرق" ككتلة واحدة. بناءً على ذلك، يخلص البحث إلى أن فهم التاريخ الاجتماعي للمرأة العراقية في تلك الحقبة يتطلب قراءة نقدية تفكك النص الرحلي وتضعه في سياقه المعرفي، مقارنة بالوثائق المحلية لضبط الدقة التاريخية.

المصادر والمراجع العربية:

1. أبو خيران، غيداء. (2020، 7 فبراير) .كيف سوّق المستشرقون صورةً خاطئة عن المرأة الشرقية؟ TRT عربي . https://www.trtarabi.com/explainers/كيف-سوق-المستشرقون-صورة-خاطئة-عن-المرأة-الشرقية-11756
2. الأنصاري، فاضل. (1970) . سكان العراق: دراسة ديموغرافية – جغرافية مقارنة .دار الكتب العالمية.
3. بولوك، كاثرين .(2011) .نظرة الغرب إلى الحجاب: تحدي الصور النمطية التاريخية والحديثة (شكري مجاهد، مترجم). مكتبة العبيكان. (العمل الأصلي نشر عام 2002).
4. التميمي، عبد الجليل، واخرون. (1986) .الحياة الاقتصادية للولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني (المجلد 2). مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني.
5. رؤوف، عماد عبد السلام .(2000) .من تاريخ الخدمات النسوية العامة في الموصل .مجلة المورد، (1) 28 . وزارة الثقافة والإعلام، دار الشؤون الثقافية العامة.
6. السامرائي، نور الهدى فايق محمد .(2024) .أحوال العراق من خلال كتابات المستشرق الإنكليزي كلوديوس جيمس ريج (1787–1821م) .مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، (12) 31، ج 2، 282–285.
7. عطية، عاطف .(2013) .لباس المرأة العربية بين التقاليد الاجتماعية والتفاعل الثقافي .رسالة التراث الشعبي، (29)، 64–65.
8. العلاف، إبراهيم خليل. (2009، 3 مايو) .الحياة الاجتماعية في ولاية الموصل 1515–1918 .الحوار المتمدن، (2635). https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=170440 .
9. غازي، علي عفيفي علي .(2018) .المرأة البدوية في كتابات الرحالة الغربيين .مجلة قطر الفنية، (صيف 2018)، 1–93.
10. مرعب، ماهر فرحان .(2002) .الأسرة في قرية عراقية .إنسانيات: المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية، (16) 6، 41–56.
11. النجار، جميل موسى .(2010) .التعليم في العراق في العهد العثماني 1868–1918(ط. 1). آفاق عربية.
12. نجار، كفاح أحمد .(2022) .تطور النظام الصحي في العراق خلال العهد العثماني (مستشفيات عثمانية في العراق نموذجاً). في أعمال المؤتمر التاريخي التركي الثامن عشر: المجلد الثالث. التاريخ العثماني (ص 737–760). هيئة التاريخ التركية.
13. النجدي، إيهاب .(2008) .صورة الغرب في الشعر العربي الحديث .مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري.

المصادر والمراجع الأجنبية:

1. Ainsworth, W. F. (1842). Travels and researches in Asia Minor, Mesopotamia, Chaldea, and Armenia (Vol. 2). John W. Parker.
2. Al-Nasiri Abedalrazak, A. (2019). Iraqi women's situation at the end of the nineteenth century and the beginning of the twentieth century. EUREKA: Social and Humanities, (2), 3–4.
3. Bell, G. (1927). The letters of Gertrude Bell (Lady Bell, Ed.; Vol. 2). Project Gutenberg of Australia. (Original work published 1927).
4. Bell, G. (1927). The letters of Gertrude Bell (Lady Bell, Ed.; Vol. 1). Project Gutenberg of Australia. (Original work published 1927).

5. Bird, I. L. (1891). Journeys in Persia and Kurdistan: Including a summer in the Upper Karun region and a visit to the Nestorian Rayahs (Vol. 1). John Murray.
6. Blunt, A. (1879). Bedouin tribes of the Euphrates (W. S. B., Ed.). John Murray.
7. Blunt, A. (1881). A pilgrimage to Nejd, the cradle of the Arab race: A visit to the court of the Arab Emir, and "our Persian campaign" (Vol. 1). John Murray.
8. Blunt, A. (1881). A pilgrimage to Nejd, the cradle of the Arab race: A visit to the court of the Arab Emir, and "our Persian campaign" (Vol. 2). John Murray.
9. Buckingham, J. S. (1827). Travels in Mesopotamia: Including a journey from Aleppo to Bagdad (Vol. 1). Henry Colburn.
10. Buckingham, J. S. (1827). Travels in Mesopotamia: Including a journey from Aleppo to Bagdad (Vol. 2). Henry Colburn.
11. Crawford, H. (2021). An exploration of the world of women in third-millennium Mesopotamia. In M. W. Chavalas (Ed.), Women in the ancient Near East (pp. 11–28). Routledge.
12. Dieulafoy, J. (1887). La Perse, la Chaldée et la Susiane : Relation de voyage. Librairie Hachette et Cie.
13. Finn, M. C. (2018). Material turns in British history: III. Collecting: Colonial Bombay, Basra, Baghdad and the Enlightenment museum. Transactions of the Royal Historical Society, 28, 21–44.
14. Jabbra, N. W. (2006). Women, words and war: Explaining 9/11 and justifying U.S. military action in Afghanistan and Iraq. Journal of International Women's Studies, 8(1), 236–255.
15. Kamberidou, I. (2013, November 26–28). The East in the eyes of Western women travellers of the 18th and 19th centuries: Solidarity and understanding the East [Paper presentation]. The Faculty of Arts International Conference: “The East in the Eyes of the West”, Kuwait
16. Kazak, Z. (2025). Female British travellers to the Ottoman Empire in the 19th century [Master's thesis, İhsan Doğramacı Bilkent University]. Bilkent University Institutional Repository.
17. Koush, A. (2025). Heritage education as a tool of social, ethnic, and religious cohesion in Iraq: Empirical insights. Journal of Field Archaeology, 50(3), 203–208.
18. Layard, A. H. (1849). Nineveh and its remains: With an account of a visit to the Chaldæan Christians of Kurdistan, and the Yezidis, or devil-worshippers; and an enquiry into the manners and arts of the ancient Assyrians (Vol. 2). John Murray.
19. Layard, A. H. (1849). Nineveh and its remains: With an account of a visit to the Chaldæan Christians of Kurdistan, and the Yezidis, or devil-worshippers; and an enquiry into the manners and arts of the ancient Assyrians (Vol. 1). John Murray.
20. Layard, A. H. (1851). The buried city of the East, Nineveh: A narrative of the discoveries of Mr. Layard and M. Botta at Nimroud and Khorsabad. Office of the National Illustrated Library.
21. Layard, A. H. (1894). Early adventures in Persia, Susiana, and Babylonia: Including a residence among the Bakhtiyari and other wild tribes before the discovery of Nineveh (New ed.). John Murray.
22. Loftus, W. K. (1857). Travels and researches in Chaldæa and Susiana: With an account of excavations at Warka and Shush in 1849-52. Robert Carter & Brothers.
23. Mignan, R. (1829). Travels in Chaldæa, including a journey from Bussorah to Bagdad, Hillah, and Babylon, performed on foot in 1827. Henry Colburn and Richard Bentley.
24. Niebuhr, C. (1792). Travels through Arabia and other countries in the East (R. Heron, Trans.; Vol. 1). R. Morison and Son.

25. Olivier, G. A. (1801). Voyage dans l'Empire Othoman, l'Égypte et la Perse (Tome 1). H. Agasse.
26. Rich, C. J. (1836). Narrative of a residence in Koordistan, and on the site of ancient Nineveh: With journal of a voyage down the Tigris to Bagdad and an account of a visit to Shirauz and Persepolis (Vol. 1) (M. Rich, Ed.). James Duncan.
27. Rubio-Marín, R. (2014). The achievement of female suffrage in Europe: On women's citizenship. International Journal of Constitutional Law, 12(1), 4–34.
28. Said, E. W. (1979). Orientalism (1st ed.). Vintage Books
29. Sawyer, L. M. (2012). Orientalism and three British dames: De-essentialization of the other in the work of Gertrude Bell, Freya Stark, and E.S. Drower [Master's thesis, Liberty University]. Scholars Crossing. https://digitalcommons.liberty.edu/masters/246/
30. Topuridze, I. (2023). The situation of women in Iraq during the Mamluk rule. The Near East and Georgia, (15), 198.
31. Vinthagen, S., & Johansson, A. (2013). "Everyday resistance": Exploration of a concept and its theories. Resistance Studies Magazine, (1), 1–46.
32. Worringer, R. (2021). A short history of the Ottoman Empire. University of Toronto Press.
33. Younus, U. M., Bhatti, I., & Ahmed, S. (2020). The role of a mother and a wife in reformation of society. Al-Aijaz Research Journal of Islamic Studies & Humanities, 4(1), 305–306.